مفهوم الألوهية في الديانات المنزلة وعلاقته بالعنف

أ. بلعربي محمد

الألوهية لازمة من لوازم الدين[1]. فليس ثمة دين يخلو من تصور للألوهية على شكل من الأشكال. ويختف هذا التصور من دين إلى آخر. يمتد من الأحجار البسيطة إلى الإله الواحد الذي لا تدركه الحواس.

ولا يمكن أن نتصور علاقة الألوهية بالعنف إلا من خلال علاقتها بالإنسان وبالمخلوقات على العموم. فالإله لا يتصور أن يمارس العنف على نفسه، وإلا لحق به ما يلحق بالمخلوقات من أوصاف كالعيوب والنقائص وما يمت إلى ذلك بصلة من الصلات.

وقبل أن نتحدث عن الألوهية وكيف صورتها الديانات المترلة، يجدر بنا أن نرى مفهومها عند فلاسفة اليونان باعتبارهم أصحاب أو تفكير فلسفي منظم.

يصور شاعرهم "هوميروس" في ملحمته الشهيرة "الإلياذة" الإله "زيوس" جامحا، ميالا إلى إذلال البشر وترويعهم وتنغيص حياتهم. أما "هزيود" فقد صوره عادلا يحسن إلى من أحسن، ويسخط على من أساء[2].

أما أفلاطون فقد وافق أستاذه سقراط بعض الموافقة في قوله بأن الشر يعود في أصله إلى الجهل. وقلة المعرفة ويرى ن الإنسان يساق إلى الشر بجهله وليس بتقدير من الله. لأن الإله خير لا يصدر عنه إلا الخير. ووجود الشر لازم مع وجود الخير. أما الخير الاضطراري فلا قيمة له، ولا دلالة فيه على الفضيلة. فالشر إذن موجود في العالم ولكن لا يقدره الإله. وحرية الإنسان في طلب الكمال لا يعترضها قدر إلهي، بل تعترضها عوائق مادية، ويسميها أفلاطون "بالكثافة المادية" أو الهيولى، وهي عائق في سبيل تحقيق الكمال الذي يريده الله[3].

أما "أرسطو" فقد تصور الإله على نحو يختلف عن إله أفلاطون. فالإله عنده هو المحرك الأول **Le premier moteur** الذي حرك العالم وهو لا يتحرك. وهو يعيش بمعزل عن العالم لا يهمه من أمر العباد شيء على الإطلاق. إنه إلهٌ لا عمل له سوى أنه يعقل نفسه، لأن العمل حركة وتغير، والتغير صفة لا تنطبق على الكائن الكامل. والعباد هم الذين يتحركون في طلب الكمال. والمخلوقات هي التي تشعر بالنقص فتتسامى إلى مصدرها (المحرك الأول) وتتحرك من صورة إلى أخرى في طلب الكمال لأنها في حاجة إليه. أما الإله فلا يحتاج إلى شيء، ولا يقدّرُ خيرا

ولا شرا. بل يترك للإنسان حريته يفعل ما يختار وما يشاء. ومن ثم فلا علاقة لإله "أرسطو" بالشر الموجود في العالم، والعنف الذي يسلكه الإنسان(4).

أما في بلاد الفارس فقد تمخضت عن المعتقدات القديمة المجوسية ديانة هي الديانة المزدكية التي أصبحت الديانة السائدة في إيران."مزدا" معناه الذكاء والإله "مزدا" هو الإله الحكيم العاقل الذي برز من بين الآلهة المتعددة وهيمن عليهم، كما برز إله آخر، هو الإله "أهوارا". الذي يمثل القوة(5) ، لكن هذه القوة ليست ظالمة، إنها قوة عاقلة، لأنها امتزجت مع العقل، وأصبح هذان الإلهان إلها واحدا: "أهوارا مزدا".(6) لكن المجوسيين اللذين تبنوا هذا الإله أقاموا حياله إلها آخر يمثل قوى الشر الموجودة في العالم، لأن "أهورا مزدا" هو إله عاقل ولا يمكن أن يمثل إلا مبدأ الخير، ومن ثم كان ظهور إله الشر تمهيدا لنشوء الديانة الثنوية(7).

مفهوم الألوهية عند اليهود:

يبدو الإله في الديانة اليهودية على صورة الملك المطلق الذي يريد أن يستأثر لنفسه بكل شيء، بالملك والمعرفة والخلود والسلطان. ويكره أن يتسامى الإنسان إليه أو ينافسه، فيبتليه بالعجز والحرمان.

ويبدو الله في أول غضب له، كما جاء في سفر التكوين، عندما أكل الإنسان من الشجرة التي نهاه عنها، هي شجرة المعرفة الإلهية ، فقال الرب الإله :

" هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرت الحياة أيضا يأكل ويحيى إلى الأبد"

و لم يغضب الرب على الإنسان وحده، بل غضب على سكان السماء، وهم الملائكة لأنهم نظروا إلى بنات الناس فرأوا أنهن حسنات. فاتخذوا منهن نساء. وعندما تكاثر الناس انتشر الشر في الأرض، فحزن الله لكونه قد أنزل الإنسان إليها وتأسف لذلك كثيرا(8).

فالله في الديانة اليهودية ملك يكره أن ينافسه رعاياه، وأن يطلعوا على أسرار حكمته. وقد وصفه موسى بأنه جبار، وإله الحق والقوة والصلاح، لا تطاله يد، ولا تراه عين(9).

وقد ذهب الحاخامات إلى أنه إذا كان الرب قد امتدح خلقه فمن ذا الذي يستطيع أن يذمه ؟ والشر بما في ذلك الشر الأعظم الذي هو الموت، إنما يحل بالعالم من خلال خطأ الإنسان، لقد خلق لكي يحيى لا ليموت، فالرب منح الإنسان شرارة الحياة، وقدر له العيش على الأرض، التي أعدها له، بل إنه حذره مما لا ينبغي له أن يأتيه كيلا يسقط ضحية للموت(10). ولعل ما يجب ملاحظته أن تفسير العهد القديم لأصل الموت يجعل الاعتراض عليه

ووصفه ظلما من جانب الإله هو أمر محظور مقدما على نحو فعال، حيث أن الموت حل بالإنسان من خلال سقوطه الخاص[11].

في مجمل القول يبدو الإله في العقيدة اليهودية متحيزا إلى بني إسرائيل تارة، غاضبا عليهم تارة أخرى، متقلب الأحوال فهو يهدد بالعقاب الشديد، ثم يرضى عنهم وهكذا دواليك.

يقول "يوسفيوس": إن الله شاء أن يمزج بين القدر ومشيئة الإنسان ليتاح له فعل الخير والشر كما يريد[12].

ومن ثم يكون إله اليهود عنيدا ينافس البشر وينافسونه فهو، على قوته وجبروته أقرب إلى طبائع الإنسان مما يعتريه من الغيرة على نفسه، ومنافسته للبشر الذين خلقهم وتهديده بالبطش بهم وعقابهم.

الألوهية في التصور المسيحي

لم يشر المسيح إلى أصول الشر الموجودة في كتب بني إسرائيل، وإن ذكر أن الأرواح الشريرة تسكن جسد الإنسان.

ويقدر الرسول "بولس" أن أصل الشر في الإنسان هو عصيان آدم أمر ربه وأكله من الشجرة المحرمة. إن الإنسان يصنع الشر لأنه ورث هذه الخطيئة من أبيه، ولا كفارة لها غير الموت[13].

إن الإنسان في المعتقد المسيحي، هو وارث للخطيئة، وكل وارث لها يشمله الخلاص بالنعمة الإلهية. وقضاء الله هو وحده الذي يفصل بين الأشرار والأخيار، وهو الذي يختار العباد للخلاص الأبدي أو للهلاك الدائم كما يشاء[14].

وبصفة عامة، يظهر الله في المسيحية على لسان الرسول "بولس"، خيرا لا يحب إلا الخير، ولا يصدر عنه الشر. وقد دافع عن الله إذ نفى عنه الظلم، وأقر طبيعته الخيرية[15].

مفهوم الألوهية في الإسلام

يقوم الإسلام على عقيدة التوحيد. ومن ثم لا يمكن أن نتصور الله في العقيدة الإسلامية إلا من خلال الوحدانية المطلقة التي لا مجال لأي ألوهية أخرى معها، لأن الإيمان بأكثر من إله مفسد لفهم الكون، ومفسد لفهم الواجبات والفرائض ومفسد لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان. "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"

ويقودنا الحديث هنا إلى الجدل القائم في الإسلام حول طبيعة الله أو ماهيته، ويمكن أن نختصر هذه المسألة في جسمية الله أو لا جسميته. إن النصوص القرآنية تثبت الحالتين معا. لذلك وجب تأويل بعضها حتى يمكن الخروج

من التناقض. ويترتب على النصوص التي يفهم منها أن الله جسم أن الجسمية لا تناسب مفهوم الألوهية، لأن الله إذا كان جسما فإنه سيتعرض لكل ما يتعرض له الجسم من أحوال كالتلون والتغير والزيادة والنقص وما إلى ذلك من صفات الأجسام، أما إذا لم يكن الله جسما فإنه سيصعب على العقل تصور ألوهية أو ماهيته خالية من كل تجسيم، وهذا يكون مدعاة للناس إلى الشك كما يذهب إلى ذلك ابن رشد[16]. وقد اقترح ابن رشد حلا وسطا يجمع بين الجسمية التي قال بها الأشاعرة واللاجسمية التي قال بها المعتزلة فذهب إلى أن الله نور، وفي ذلك صفة من صفات الجسم وهو كونه قابلا للرؤية، وفيه صفات اللاجسم لكونه ممتنعا عن اللمس[17].

وترتبط الألوهية بالإرادة التي من خلالها يترجم الخير والشر على الأرض. وبما أن الشر موجود في العالم فهل مصدره أفعال الإنسان أم هو قدر من الله؟

يتصور المعتزلة الله عادلا لا يصدر عنه الشر على الإطـــلاق، ويقتضي العدل الإلهي أن يكون الله محبا للصلاح والخير[18]. ولكن الله الذي أودع في الإنسان قوة العقل التي يميز بها بين الخير والشر يعاقب هذا الإنسان حين يفعل الشر ويعصي أوامره، ومن ثم يكون للعقاب والثواب معنى تبرره حرية الإنسان واختياره لأفعاله[19]. فالعقاب الذي يهدد به الله عباده، والتوعد الذي يصرح به في آياته، ليس من طبيعته، ولا هو جبلّة فيه. ومن ثم يكون الله منزها عن كل شر، أو عن كل عنف. وما سيصدر عنه من عقاب لعباده في الآخرة إن هو إلا تحقيق لوعيده للذين عصوه، وعاثوا الفساد في الأرض. لأن الله "أفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ولا يخل بما هو واجب عليه"[20]. وهو ما يسميه المعتزلة بالعدل الإلهي الذي ينفي صدور الشر عن الله ويثبت لطفه بعباده وعدم تكليفهم بما لا يطاق.

أما الأشاعرة، وهم خصوم المعتزلة، فإنهم يقرون لله قدرة مطلقة وإرادة غير محدودة . فالله خالق كل شيء العالم والكائنات ،والإنسان وأعماله . ويخلق الشر، وكل ما يريد لأنه يتصرف في إرادته كما يشاء[21]. ويعذب من يشاء ويجازي من يشاء إذ لا حدود لمشيئته.

تختلف الألوهية إذن في التصور الإسلامي عنها في التصور اليهودي والمسيحي. وتظل مسألة الشر الموجودة في العالم غير محسومة في كل من الديانات الثلاث.

إن تصورنا لله خاليا من كل عنف بجميع أشكاله وصوره ودرجاته قد يؤدي بالإنسان إلى تصوره وديعا لطيفا لا أثر للقوة فيه، وفي ذلك احتمال الضعف فيه، والضعف لا يجب أن يكون من صفات الألوهية على الإطلاق. فالألوهية تقتضي القوة والجبروت وما يلزم عنهما من عنف وبطش وشر وعقاب. وعلى العقل أن يفترض أن الشر الذي يوجد في العالم ويمس الإنسان ليس وجوده سوى لحكمة بعيدة لا يدركها إلا الله وحده، ويقصر عن إدراكها عقل الإنسان في محيطه الضيق المحدود.

· الهوامـــش :

1-العقاد، الفلسفة القرآنية، بيروت . د.ت، ص 11 .12

2-المرجع نفسه، ص137.

3-حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت. ط2. 1982 .

4-الفلسفة القرآنية، ص 138.

5-المصدر نفسه، ص 139.

6-تاريخ الفلسفة العربية، ص 23.

7-المصدر نفسه، ص 24.

8-الفلسفة القرآنية، ص 149-150.

9-جورج حنا، قصة الإنسان، بيروت، دار العلم. ط6- 1975. ص43.

10جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، الكويت، فصل الموت في العهد القديم، ص 88-89.

11-المرجع نفسه، ص 89.

12-الفلسفة القرآنية، ص 152.

13-المرجع نفسه، ص 153.

14-الموت في العهد الجديد، ص 92- 93.

15-الفلسفة القرآنية، ص 153- 154.

16-ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق وتقديم محمود قاسم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ط 3. 1969 – ص 171- 177.

17-المصدر نفسه، ص 175.

18-عبد المجيد النجار

– علي الشابي

– أبو لبانة حسن – المعتزلة بين الفكر والعمل، تونس، د.ت ص 43-44 .

19-المرجع نفسه، ص 70.

20-المرجع نفسه، ص 43.

21-الأشعري أبو الحسن، اللمع، القاهرة 1955، ص 38-39نقلا عن عبد الرحمن بدوي :
Histoire de la Philosophie en Islam , Paris , Vrin , 1972,t1, p292.